٥

حليمة وعم محمد

كان خادمنا رجلا يدعى «عم محمد» لا يعرف أحد من أين جاء حتى ولا هو يعرف، وقد سألته من أي بلاد الدنيا هو، فشور بيديه وهز رأسه ولم يجب، ولعله نسي، فقد علت سنه جدًا، والأرجح أنه جاء إلينا وهو صبي لا يفقه، فقد كان لكل أسرة خادمها الذي نشأ وترعرع، وشاب أيضًا، في ظلها، ولم يكن أحد ينضو عنه ثوب هذه العمومة إلا ثلاثة جدي وأبي، ومن الرجال، وجدتي من النساء أما سائر أهل البيت فكان اسمه عندهم «عم محمد» وكان هذا بعض ما يكرم به الناس خدمهم في ذلك الزمان.

ولا أذكر كيف كان وجهه في حداثتي، فإن مسافة الزمن بعيدة، ولكني أنظر إليه الآن فإنه لا يزال حيا يرزق وأرى كيف كان يمشي معتدل القامة كالسيف وكيف يأبى أن يتخذ الترام أو غيره أو يقطع المسافات بين أرجاء القاهرة إلا على رجليه، وكيف أنه لا يمرض ولا يرقد ولا يشكو شيئًا حتى في هذه الشيخوخة العالية وكيف أنه لا يزال يشرب «البوظة» التي أعرفه -مذ عرفته- كلفًا بها لا ينصرف عنها أو يتوب ولو قطعوا رأسه وأوصاله فيخيل إلي أنه كان دائما هكذا بل إنه ولد هكذا بشاربيه الخفيفين، وأسنانه القوية التي لم تسقط ولم تتزعزع منها واحدة، ووجهه المغضن الحافل بالأخاديد والحفر، وحذائه الأصفر الباهت الذي يحرص مع ذلك على صقله فيمسحه بطرف المعطف العتيق الذي خلعته عليه منذ خمسة عشر عاما، ويأبى مع ذلك أن يبلى أو يتمزق.

وكان عمله مقصورًا على ساحة البيت وما فيها من غرف أو «مناظر» كما كانت

تسمى وعلى قضاء الحاجات من السوق، ولا يجوز له أن يصعد إلى حيث السيدات، فإن لهن خادمتهن التي لا ينبغي لها تجاوز السلم إلى ساحة البيت وكانت حليمة هذه فتاة سمراء واسعة العينين مقوسة الحاجبين، طويلة الأهداب وممشوقة رشيقة، وكانت هي التي تنزل إلى عم محمد إذا احتاج البيت إلى شيء، فتقف على آخر درجات السلم، وتنقر على الباب فيجيء إليها، فحدث ما كان لا بد أن يحدث أحبها وأحبته.

وأقبل عم محمد يوما على جدي، وهو جالس على كرسيه في الدهليز وفي يده نبوته وشفتاه تتحركان بالتلاوة، ووقف إلى جانبه يفرك كفيه ويتحين من الشيخ التفاته إليه، فلما فعل، مال عليه وأسر إليه أنه يطلب يد حليمة فهش له الشيخ لأن الزواج نصف الدين، ووعد أن يخاطب أبي في الأمر وأن يحمله على الموافقة.

وقد كان تزوجا، وصارت حليمة تنتقل في الليل إلى غرفة «عم محمد» في البدروم كما يسمى في مصر، أو السرداب كما يسمى في العراق.

وقد جهزوها له بسرير وخزانة وصندوق أحمر، وحصيرة ملونة وبساط قديم مما كان في البيت، وكانت حليمة هذه قوية جليدة لا تفتر ولا تهن، فكانت تعمل طول النهار وشطرا من الليل، في البيت تكنس وتمسح وتغسل، وتنفض وتشيل وتحط، وترتب، وتغربل وتعجن وتخبز وتساعد في المطبخ، وتطلع وتنزل، حتى إذا جاء وقت النوم انحدرت إلى «عم محمد» وبقيت معه إلى الفجر، فتنهض لتوضئ الشيخ وتعد له «الشبوك» والقهوة...

وحملت حليمة، فعظمت بطنها، فأرادوا أن يترفقوا بها، وأن يعفوها من عملها الشاق حتى تضع حملها، ولكنها أبت وظلت تروح وتجيء وتشيل وتحط وتقوم

وتقعد، وهي مسرورة وزاد وجهها إشراقًا ولمعت عينها بنور البشر والجذل.

وكان جدي يصعد بعد الغروب بقليل، أما أبي فكان يترك المكتب ليصعد أو يخرج بعد صلاة العشاء وينصرف الكاتب، ويوصد الباب، ويصف عم محمد فتطل عليه حليمة من إحدى النوافذ -فما بقي من هذا بأس بعد انصراف الرجال- فيسألها «عاوزين حاجة...» فتستفسر ثم تخبره، ويطمئن فيخرج متسللا ويغيب ساعتين أو ثلاثًا ثم يعود وهو يتطرح من السكر، وكان لا يشرب إلا البوظة وكان جدي ينهاه ويعظه، وأبي يضربه وهو لا ينتهي ولا يرعوى، حتى يئسا من صلاحه فأهملا أمره وتركاه للأيام، فلم تزده إلا حبا للبوظة.

وقد سألته مرة «ألا يمكن أن يزهدك شيء في هذه البوظة..»

فأجابني بسؤال: «أهي حرام...»

قلت: «من عاشر القوم أربعين يوما صار منهم».

فنظر إلي مستفسرا مستوضحا فقلت: أعني أنك أصبحت تفنى، ومن طول ما عاشرت أهل العلم، ولكن قل لي: إنك تشربها منذ نحو سبعين سنة، أفلم تسأمها. سبعون سنة طويلة. إن المرء خليق بعدها أن يمل الحياة، فكيف بالبوظة..

فقال معترضا: «سبعين سنة إيه يا سيدي»

قلت: «معذرة، لندع السن، ولكن ألم تسأم»

قال: «لم يبق لي ما أتسلى به سواها».

قلت: «وحليمة»

قال: «حليمة، الله يطيل عمرها ويخليها لأولادها ويبارك لها فيهم»

فأقصرت، ويودي أن أسأله «ألا يزال يحبها»

وكانت ليلة أحياها «عم محمد» بالسهر في البوظة وهو آمن، وقد كان جدي نائما، وأبي في بيت زوجته الأخرى، فلما عاد وتطرح إلى غرفته، ألفى حليمة راقدة، ولكن عينيها مفتوحتان وإلى جانبها شيء مغطى بملاءة، فوقف عند السرير، ونظر إليها مستغربًا ابتسامتها وكانت عادتها أن تنهض له حين يدخل عليها لتكون في خدمته حتى ينام فلما طال تحديقه فيها، نحت الملاءة ورفعت ما تحتها، على كفيها ليراه، فأفاق وذهب عنه خمار السكر، وهوى على ركبتيه، وأسند جبينه إلى مرتبة السرير وزاح يبكي بكاء الفرح لا الحزن، فوضعت حليمة طفلتها، وجلست، ومدت يدها إلى رأسه لترفعه وتمسح له دموعه فتناول كفها ولثم راحتها، ونظر إليها وقال:

«لو كنت أعلم لما خرجت»

قالت: «خروجك كان أحسن.. ماذا يصنع الرجال في هذه الحالة»

فسألها «كيف.. من كان معك»

قالت: «لا أحد.. لم أخبر أحدًا.. ما الداعي»

فدهش ولكنها ابتسمت ونهضت، لتقوم بخدمته كعادتها، وحاول هو أن يمنعها، فسخرت منه، وسخنت له الطعام وقدمت إليه ليأكل، وكان لا يأكل إلا قبل النوم مباشرة، وبعد أن يرتوي من البوظة فعكف على طعامه وهو يتعجب لحليمة وقوتها وجلدها، حتى ليجيئها المخاض فتتشدد وتحتمل آلامه في صمت، وتضع

وحدها وبلا معين، وبعد ساعة أو ساعتين، ترجع كما كانت، لا فاترة ولا متهافتة ولا مسترخية وجال بخاطره أن حليمة آية من آيات الله، وأنه سعيد بأن تكون زوجته، وحدثته نفسه، على ما روى لي أن يجعل مظهر شكره لله وإقراره بنعمته عليه، أن يكف عن معاقرة البوظة، ولكنها كانت نجوى ليس إلا.

وقال لها وهو يمسح يديه في الفوطة: «يجب أن تستريحي غدا على الأقل».

فاستغربت هذا الاقتراح وقالت: «أستريح! أنت مجنون».

ولم تسترح حليمة ولا دقيقة واحدة، فكانت ترضع طفلتها وتتركها وتواصل عملها المتنوع.

ولا تزال حليمة إلى اليوم وقد جاوزت الستين أقوى وأقدر على العمل من عشر فتيات فليس أعجب من «عم محمد» إلا امرأته التي لا تكل ولا تفارقها ابتسامتها كأنها مرسومة ابتسامة العطف والرضا والتسامح، وما أكثر ما افتقرت إلى عطفها، ورضاها وتسامحها، وكان حسبي منها في كل حال أن تنظر إلي بعينيها النجلاوين، وأن أرى ثغرها المفتر فتسكن نفسي ويشيع في صدري الاطمئنان، ويعمر اليقين قلبي، ولا يسعني إلا أن أجيبها بابتسامة، فتهز رأسها على مهل وتربت لي على كتفي وتمضي.

صدق عم محمد فإن حليمة آية....

٦

الحادثة الثالثة أن جليلة بنت حليمة وعم محمد- أكلتها النار وأنا أنظر إليها مسحورا، وبعد سنوات طويلات المدد، قرأت أن نيرون أضرم النار في رومية عروس الدنيا يومئذ ووقف على تلها في حاشيته المستهترة، وفي يده قيثارة يعزف عليها، وعيناه على الضرام المتأجج والدخان المتكاثف، فاستطعت أن أفهم، ولم يعيني أن أدرك سحر النار وفتنة هولها، وكان الذي تمثل لخاطري وأنا أقرأ ذلك.. لا رومية وبناها العالية وقصورها الضخمة بل جليلة وقد ضربت النار عليها سرادقًا.

ولم تطلق المسكينة إلا صيحة جزع واحدة، ثم وقفت كالتمثال، وذهبت النار تأكل ما عليها من خفيف الثياب وتحيل جسمها الأسمر الطري جمرة مضطرمة.

وكنت واقفًا على سلم البدروم مسمرًا هناك وعيني عليها لا تتحول عنها، وفي مسمعي من اللهب الخفاق اللمعان مثل الدمدمة والتدويم، وفي أنفي رائحة اللحم المشوي وعلى وجهي صهد الحر.

وكان الوقت شتاء، والبدروم يكون في الصيف رطبًا فكيف به في زمهرير الشتاء. وكانت جليلة قد سبقت أمها إلى هذه الغرف التي تشبه القبور، فشرعت تضرم الفحم -أو السن كما يسمى تراب الفحم- في الموقد لتدفأ به، ولم يكن عندها منفاخ تعجل به إيقاد النار وكانت ترتعد وتنتفض من البرد، وكان مصباح الغاز مضاء، فتناولته وانحنت به على الموقد ورفعت غطاءه النحاسي الذي يتدلى منه الشريط في الغاز ولم تر أن تنزع الزجاجة وتطفئ الشريط قبل أن تصب الغاز على الفحم، فسال منه شيء على ثوبها وهي لا تدري، ثم أعادت الغطاء إلى مكانه من

المصباح، ووضعته إلى جانبها على الحصيرة وأشعلت عودًا وأدنته من البترول في الموقد فارتفع منه اللهب فجأة، وكانت حانية عليه، فردت وجهها بسرعة، ونسيت أن تتناول المصباح وهي تنهض قائمة، فانقلب المصباح واشتعل طرفي الثوب الذي كان مسفسفًا بالبترول.

وليس هذا خيالا أتخيله فقد رأيته كله بعيني، وكنت قد غافلت أمي وحليمة، وانحدرت وراء جليلة، وفي مأمولي أن أجالسها وألاعبها وأسامرها قليلا، فقد كنت شغوفًا بها، وكانت هي تأنس بي وتهش لي، ولا تضن علي بما تعلم- مما سمعت أو رأت أو خطر لها. وكنت على عتبة الباب، وكنت أهم بأن أضع قدمي على درجة السلم نازلا إليها، فرأيتها تمشي إلى «الصقة» وتعود بالمصباح في يدها، وألهمت أن أقف حيث كنت على العتبة فلم يفتني شيء من الفاجعة.

وألفيتها تهوي إلى الأرض، والنار حولها، فأفقت وارتددت راجعًا إلى ساحة البيت، ورحت أصيح، وأزعق وأدعو من يسمع أن يدرك جليلة فإنها تحترق. وسرى الخبر سريان النار في الهشيم اليابس، وكان أخي الأكبر في البيت، فنزل مع النازلين، ورأوا أن جليلة قد أكلتها النار، فصار هم الجميع أن يطفئوا الحريق، فقد امتد لسان النار إلى الحصير والسرير وسائر ما في الغرفة.

وكنت بينهم، أروح وأجيء إلى حيث أراهم يروحون، ومن حيث يجيئون، ولا أعمل شيئًا، وكانوا مضطربين وكان لغطهم كثيرا وعاليا، وكان النساء يبكين ويولون وفي أيديهن الطشوت والأباريق، وأخي يتناولها منهن مترعة ويصب على النار، ولا يفتأ يسأل عن «محمد»- «ابن الكلب» أين غطس في هذه الليلة السوداء، ويتوعده بعلقة، ويقول: ليته كان هو الذي احترق، وبقيت جليلة، فتقول حليمة عفا الله عنها: «آه والنبي». وترسل الصوت مجلجلا في سكون الليل بالنواح على بنتها،

ولا تكف عن ذلك، وعلى الرغم من الحرقات التي تعانيها لا تتوانى عن ملء الطشوت وحملها إلى أخي.

ورآني أخي كالكلب الذي لا يترك قومه ولا ينفك مجرى معهم ويطوف بهم ويدخل من بين سيقانهم ويربكهم وهو يريد أن يعرب بخفة حركته بينهم عن مشاركته لهم فيما هم فيه، فزجرني وطردني وأمرني أن أصعد..

ولكني لم أط نعم نأيت عن البدروم ولكني بقيت في فناء البيت، وكيف أصعد إلى فوق، وكل من في البيت قد ترك هذا الفوق إلى تحت.. وكيف أكون وحدي في مأمن من المخاوف التي كظوا لي رأسي بصورها فيما كانوا يقصون علي كلما أرادوا تنويمي.. كأنما كان خير ما ينيم الطفل هو هذه المفزعات.

وجاء أبي، فقد دعي من البيت الصغير ورآني في الساحة وحدي، فأقبل علي يسألني بصوته الهادئ المتزن النبرات «أنت هنا» فبكيت... كأنما فتح لي هذا السؤال منفسا فتفجر ما كان محتبسا فربت على كتفي، ومضى عني إلى البدروم، فألفى أهل البيت جميعا جالسين على درجات السلم.

وكان لا بد أن يأتي الشرطة وأن يجري التحقيق، وكانت النار قد أطفئت، فذهب بي أبي إلى المكتب ولحق أخي بنا، وبعد أن غير ثيابه وهناك قصصت عليهما ما رأيت، وكان الشرطي أخوف ما نخاف نحن الصغار، بعد العفاريت والأمساخ، وغير هذه وتلك من المرعبات، وكان الذي نعرفه هو أن العسكر عدو لدود لخلق الله، وأنه مجعول للقبض عليهم والزج بهم في المحابس، وأن «الكركون» -كما كنا نسمي مركز الشرطة- ليس أكثر ولا أقل من سجن فظيع، وأن العاقل من يتقي أن يمر من أمامه، فشرع أبي يذهب عني الروع ويطمئنني، ويروضني على السكون إلى

لقاء هؤلاء الشرطة وغيرهم، ويفهمني أنه ليس علي أكثر من أن أروي لهم ما رأيت، ويؤكد لي أني سأكون موضع عطفهم، وأني سألقى منهم كل خير، وأنه لن يصيبني منهم سوء، فنسيت وذهلت عن النار التي اشتوت بها جليلة، وعن فجيعتي فيها، ولم أعد أفكر إلا في هؤلاء الشرطة المخوفين الذين سأقف أمامهم وأسأل وأجيب...

مضت على هذه الحادثة أربعون عامًا، ولكني لا أرى أثرها يمحى أو يبهت، وليس أبغض إلي ولا أقدر على إفزاعي وإطارة عقلي من النار، ويمضي شتاء بعد شتاء، ونحتاج إلى إضرام النار في الموقد للتدفئة فيسألني أهل البيت فأصيح بهم «يا خبر أسود لا لا لا.. حاذروا» وترتفع قبل عيني جليلة في سرادق من اللهب الخفاق، ويلحون علي ويقولون: إن البرد قارس، فأروح أتفلسف وأقول لهم: إنهم بله، وإنه يضعفون أجسامهم بتعويلهم في المقاومة على الثياب والنار، وأن قدرة أجسامهم على المقاومة تزيد إذا خففوا ولم يسرفوا في التوقي، ولم يجعلوا معولهم في التماس الدفء على شيء أجنبي منهم، وأقول لهم أيضا: إني أضعف منهم جميعا، وأنحف وأحوج إلى وسائل الوقاية، ولكني أحتمل ما لا يحتملون، فلماذا... لا سر هناك كل ما في الأمر أني لا أكثر من الثياب، ولا أتخذ المعاطف وإذا وسعني أن أستغني عنها، ولا أستعين بالنار. وأذكر لهم أني كنت في صدر أيامي ألف رأسي عند النوم في فوطة كبيرة وألبس ثيابا من الصوف حتى في وقدة الصيف المحرقة، فكنت لهذا طول عمري مزكوما، وكان السعال لا يترك لي راحة في ليل أو نهار، ثم ضاق صدري، وحزنت على نفسي وقلت: إذا كان هذا حالي في شبابي، فماذا عسى أن أكون في الكهولة والشيخوخة... وكان هذا يسود الدنيا في عيني، ويغريني بالتشاؤم.

وكانت المرارة تقطر من قلبي على الورق، في شعري ونثري، ويئست فتمردت وقلت: إنه لن يصيبني شرا مما أعاني، فخففت، وصرت إذا نمت، أخلع ثيابي جميعا

ولا أبقي منها إلا الكفاية للستر، أي الجلابية ليس إلا، وكان الأوان يسمح بذلك، فقد كان الوقت صيفا، فلما جاءت مقدمة الشتاء، وسعني أن أستغني عن الملابس الثقيلة التي اعتدت أن أتخذها، ودخلنا في الشتاء فلم أشعر بحاجة إلى المعطف، ولكن بقية من الحذر القديم جعلتني أحرص على حمله، ولكن على ذراعي، عسى أن أحتاج إليه في الليل. وكنت إذا شعرت بهذه الحاجة، أظل أدافعها وأقاومها، وأرجئ الالتجاء إلى المعطف والدخول فيه، وأقول لنفسي: «نصف ساعة آخر لن يقتلني نصف ساعة من البرد» ثم أرجئ الأمر مرة أخرى وهكذا، حتى أصبحت أحس أن المعطف حمل لا معنى له ما دمت لا ألبسه، فصرت أتركه في البيت، وإن لي الآن لمعطفا، ولكنه قديم.. قديم حتى لقد نسيت من طول عمره متى فصلته، وهو للزينة أكثر مما هو للمنفعة، بل ليس حتى للزينة، فقد أكلت منه الفيران نحو شبر في شبر وخجلت أن أبعث به إلى الرفاء، ولم أر أن أكلف نفسي ثمن معطف جديد لا ضرورة إليه فتركته، وأمري إلى الله، وأمره إلى الفيران.

أما الشرطة فقد زايلني الخوف الصبياني منهم فما يسع من يشب عن الطوق إلا أن يدرك أن الشرطة لا يملكون ضرا ولا نفعا، وأن الأمر فيهم إلى القانون وأنهم ليسوا أداة إرهاب أو لا ينبغي أن يكونوها وبل أداة حماية للناس، ولكني مع ذلك أكره أن أدخل مركزًا من مراكز البوليس، وأنفر من الحاجة إليهم وأحب أن أستغني عن الالتجاء إليهم، ولقد سرقت خادمة كانت عندي أشياء أو هذا هو المرجح والذي تشير إليه القرائن جميعًا فقلت: غفر الله لها ولا أحوجنا إلى البوليس، وهنيئًا لها ما أخذت، ولا عذبها الله به، فما هي بعد كل ما يقال فيها إلا مسكينة، وهل ينفعها ما حملت إلا قليلا، وسينتهي الأمر إذا اعتادت ذلك، إلى الشقاء المحقق، فهي أحق بالعطف، وأولى بالرحمة، ولو أنها لم تهرب بما حملت، لحاولت أن أعالجها وأن أفيء بها إلى الخير، ولكن الأمر خرج من يدي بفرارها، فالله هو القادر على إنقاذها

من ذلك المآل المخيف الذي أتوقعه لها.

ولي بين رجالي البوليس معارف وإخوان أحبهم وأكبرهم، ولكني لا أحب أن أحتاج إليهم، ولست أكره مجالسهم، ولكني أحس غضاضة حين أكون مع واحد من رجال السلطة وأحب أن يكون غيري مثلي- لا سلطان لهم على خلق الله، ولعل هذا بقية من أثر النشأة الأولى على أني لست على يقين من هذا فقد تكون لهذا الشعور علل أخرى خفية راجعة إلى آرائي ومزاجي.

obeikandl.com

٧

لا أعرف سر حبي للحى في وجوه الناس غيري، ولكني أعرف أني ما رأيت قط لحية طويلة تتدلى كالمخلاة إلا نازعتني نفسي أن أجعل لها من أصابعي مشطا. وقلما أرى الآن لحية تستحق أن أعبث بها، فإن الناس في زماننا يحلقونها أو يقصونها، ولا يرسلونها، اكتفاء بالمظهر واستفتاء به عن الحقيقة الخشنة أو الشائكة ولن تجد أحدًا في هذا الزمن يغضب إذا أحفى الحلال له لحيته كما غضب شيخ من أصدقائنا كانت له لحية كثة منفوشة ذهب بها إلى برلين ليشترك في تشييع جنازة زعيم من زعماء الترك قتل هناك. وقد احتفظ بجبته وقفطانه وعمامته فكان كل من يراه يتوهمه من أفتك البلاشفة وأخطر الفوضويين. قالوا: فذهب به صديق إلى دكان حلاق، وذهب صاحبه يتمشى على الرصيف حتى يقرع من هذا الأمر، فما راعه إلا صياح وزعيق لا يكونان في برلين إلا من مثل الشيخ، فارتد إلى الدكان فألفى الشيخ واقفًا وسط الدكان والفوطة على صدره وهو يرسل الصوت مجلجلا بالعربية الفصحى، والحلاق مبهوت فسأله صاحبه عن الخبر فقال: «خبر.. انظر..» وأشار إلى خده الأيمن فنظر صاحبه فإذا الغابة الكثيفة اللقاء قد ذهبت بقدر قادر، ولم يبق إلا وشم، على حين بقيت الغابة على خده الأيسر هائجة كما كانت، فلم يسعه إلا أن يضحك، ثم عالجه حتى رده إلى الهدوء والسكينة وسأله «ماذا قلت للحلاق؟»

قال الشيخ: «إنه رطن لي ولكني فهمت أنه يسألني ماذا أبغي ولم أدر كيف أجيبه أومأت إلى لحيتي وأشرت بيدي أن سوها -هه- أي بعض الشيء قليلا جدًا، ولكنه لم يفهم فأجرى فيها الماكينة فذهبت بمعظمها».

وسأل الحلاق كيف حدث هذا الغلط فقال: إنه سأله عما يريد أن يصنع بلحيته

ويقصه منها فأشار الشيخ إليها وقال: «هاف» أي النصف فهو لم يجر عليها ولم يجاوز ما طلب.

كلا؛ لا يغضب أحد في هذه الأيام كما غضب صديقنا الشيخ، إذا ما جار المقص على لحيته، فيندر أن أنعم بمنظر لحية حقيقية، أو تتاح لي فرصة للعبث بها وتمشيطها، على أنه لا أسف، فقد فزت من ذلك في حداثتي بأكثر من نصيبي العادل، وكان حسبي لحية جدي، أفتل شعراتها أو أثنيها وأدسها في أذنه فينتفض ويصيح بي ويطردني فأذهب أعدو وأنا أكاد أموت من الضحك فلما مات جدي شعرت بأن خسارتي جسيمة، وأني فقدت ما لا أرى عنه عوضا، ولكن الله كان أرحم وأكرم من أن يطيل عذاب الحرمان، فقد جاء أخو جدتي ليعزينا، فأمسكناه وكنت أنا أشدهم إلحاحا عليه وتعلقا به، وكان قصيرا فلحيته تبدو أطول مما هي في الحقيقة فتسليت بها أسابيع حتى كان يوم وكنا جلوسًا على وسائد وحشايا مبعثرة على البساط وكان هو مطرقا والسبحة في يديه! وإذا به ينتفض قائما ويعلن إلينا عزمه على السفر، فاستغربنا وسألته جدتي:

«ما هذه المفاجأة؟»

فقال: «الحقيقة يا حاجة أني سمعت صوتا كصوت أبي يدعوني»

فزاد تعجبا وقال: أبي أبوك يا خال.. أبوك يدعوك.. كيف تقول..أين أنت من أبيك وبينكما ركوب خمس ساعات في القطار..»

فقال: نعم يدعوني، لقد سمعت صوته واضحًا جليا ينادي: يا عمر ولا بد لي من السفر فما أشك في أن به حاجة إلي.

وأصر على السفر، وأبى أن يبقى، فاستودعناه الله وأرسلنا معه «عم محمد» بالحقيبة إلى المحطة وفي مساء اليوم التالي جاءنا منه برقية ينعي إلينا فيها أباه أي جد أبي.

ومن تمام القصة أقول: إنهم تحدثوا فيما بعد بأن هذا الجد كان راقدًا ثم اعتدل فجأة وأطلقها صيحة قوية: «يا عمر» ولم يزد.

وكان هذا الجد معدودًا من القوم الصالحين، وكان يلبس عمامة كما لا أحتاج أن أقول، فإن الصالحين لا يكونون على ما يظهر، إلا من أصحاب العمائم ولكن لفتها كانت خضراء، لأنه شريف من نسل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وكان السيد محمد هذا قويا، وقد احتفظ بقوته حتى في شيخوخته العالية، فقد جاوز التسعين أو قارب المائة، ولم يركب في حياته قطارًا ولا تراما ولا مركبة. وكان إذا زارنا في القاهرة يجيء على قدميه، وعلى كتفه الخرج الذي في شق منه ثيابه، وفي الشق الثاني هدية من التمر أو الجبن الحلو أو غير هذا وذاك مما يرى أن يهديه إلينا، وكان أبي قد رزق قبلي بولدين ماتا فلما جئت أنا إلى الدنيا، خاف أبواي أن أموت أيضا، وصار يجزعان كلما أصابني برد أو غيره. وأنى لهما أن يعلما الغيب وأن يعرفا أني ممن قيل فيهم: إن «عمر الشقي بقي» واتفق أن جاء هذا الجد المبروك فاستكتبوه لي حجابا، فخطط شيئا في ورقة، أو كتب آيات من القرآن الكريم، لا أدري، وطواها وأمر بها أن تغلف ونهى عن فتحها، وقال: علقوها له على جنبه، فغلفوها في قماش مما يتخذ للتنجيد، أي لكسوة المراتب، وبعثوا بها إلى حذاء، ولم يكن حذاء في الحقيقة، وإنما كان رجلا يصنع المراكيب فجلد الحجاب وجعل له عينين للخيط، وعلقوه لي فصار كالحجر فيما أحس حين أرقد على جنبي.

ولم يفارقني هذا الحجاب إلا بعد أن انتقلت جدتي إلى رحمة الله، حتى بعد أن كبرت ودخلت في مداخل الرجال وتزوجت، كانت تصر على لبسه، وكنت أغافلها وأخلعه وأدسه تحت الوسادة فإذا عرفت ذلك نظرت إلي نظرة أسف وعتاب وإشفاق، وكان لبس الحجاب يثقل على نفسي وكنت أنفر من ذلك نفورًا شديدًا، ولكني كنت أقول لنفسي: إن جدتي كبيرة السن وإنها فجعت في ابنها وإنها تجزع كلما خطر لها أنها قد تفجع في حفيدها الذي تتعزى به، فماذا علي لو أرضيتها وسررتها وتركتها تقضي ما بقي من عمرها في راحة واطمئنان، ثم إني ما أحببت أحدا قط مقدار حبي لها ولأمي فكنت أشعر أن قلبي تعصره يد قوية غليظة حين أرى على وجهها آيات الفزع ومن أجل هذا استخرت الله وتوكلت عليه وتركتها تفرح وتطمئن بالحجاب على جنبي، وكانت إذا رأتني مقبلا عليها لتحيتها كالعادة تبتسم لي بفمها الأدرد، وتمد يدها إلى جنبي لتتحسسه، فأضحك وأقول: «لا تخافي إنه ما زال في مكانه وما أبقيه إلا لأنه يسرني أن أراك راضية قريرة العين» فتمسح لي رأسي وتدعو لي بخير.

فلما ماتت تركت الحجاب وكانت أمي في أول الأمر تقوم مقامها في الإلحاح علي أن أحتفظ به فقلت لها يوما: «يا ستي أنك عاقلة فبيني لماذا ينبغي أن ألبس هذا الحجاب؟».

قالت: «إنه بركة من جدك»

قلت: «صدقنا وآمنا وأنعم بجدي وأعظم ببركته ولكن ما جدوى أن أضع حجرًا».

فأطرقت فقلت: «أنا أعلم أنك تخجلين أن تقولي: إنه يقيني السوء ويحميني من

الموت لأنك أعقل وأذكى من ذلك أليس الرب واحدا والعمر واحدا أليس ما قدر يكون؟»

قالت: «آمنت بالله»

قلت: «كنت أعلم أنك ستوافقين على إطراح هذا الحجاب، ولكني أحب أن أحتفظ به للذكرى فاحفظيه لي عندك».

فأخذته، وبقي عندها مصونًا حتى ماتت فقيل لي: إنهم وجدوا حجابا بين أشيائها، وسألوني ماذا يصنعون به فأوصيت به أن يحفظوه فإنه أثر له تاريخه الطويل وصلته الوثيقة بأقوى العواطف الإنسانية ففعلوا، ولكني لم أطلب أن أراه، والحق أقول: إني لم أقو على النظر إليه يومئذ، فقد كان موت هذه الأم الصالحة أوجع ما أصابني في حياتي وأعمقه أثرا في نفسي، ولقد أبيت إلا البقاء في البيت الذي وافاها الأجل فيه، لأن كل ما فيه يذكرني بها ولكني كدت أجن. فقد كنت أتشدد وأظهر الجلد، ولكني كنت أراها في كل مكان وأبصرها تروح وتجيء وأسمع صوتها، فكأنها لم تمت وإن كان غيري لا يعرف ذلك ولا يفطن إليه، وتلفت أعصابي فكانت هذه الخيالات تسرني أحيانا وأحيانا أخرى تفزعني فأضطرب وأرتعد، وثقلت علي وطأة الهواجس والوساوس وطال الأمر فلم أر علاجًا أحسم به هذا البلاء إلا أن أفارق البيت، وأنأى بنفسي عن مواطن الذكرى ومثارها على قدر الإمكان، وأقول: على قدر الإمكان لأن المرء يستطيع أن يهرب من بيت أو بلد ولكن أنى له أن يهرب من نفسه.

٨

بعد وفاة جدي أدخلني أبي المدرسة القريبة لقربها مني حينا؛ وإمكان الوصول إليها بلا حاجة إلى قطع الشوارع التي يجري فيها الترام الجديد والتعرض لأخطاره، فقد كانت ضحاياه كثيرة في تلك الأيام.

وكان للمدرسة بوابتان واحدة على الشارع القريبة أي صانعي الخيام وكانت رحيبة ولكنها عتيقة جدا وقد بقيت بها أربع سنوات، ولا أذكر أن أحدا خطر له أن يجعل لأبواب الحجرات فيها مشابك، فكان المعلم إذا أراد أن يترك الباب مفتوحًا، يجيء بحجر يسند به الباب، ولكن كان للحجر منافع أخرى لبعض المعلمين وأخص بالذكر منهم شيخا أعور كان يعلمنا «الخط» فإذا أساء أحدنا الكتابة أو تشاغل عنها بالكلام أو ضحك أو لعب، أو فعل غير ذلك مما يفعل الصبيان، ناداه الشيخ ودق له أصابعه بهذا الحجر.

ويكفي للتعريف بالمدرسة أن أقول: إن ناظرها كان «وقفًا» عليها وكان الكبار منا يروون عنه أنه كان يقول عن نفسه: إنه «جاهل جاهل، لكن أدراجي» أي أداري. وأنصفه فأقول: إنه كان رجلا طيبا وإنه لم يسئ قط إلى معلم أو تلميذ أو فراش -أي خادم- وقد أنعم عليه في السنة التي دخلت فيها مدرسته، برتبة بك من الدرجة الثالثة وهي لا تخول لصاحبها لقب البك ولكنه فرح بها وانتحل اللقب وصار يغضب إذا لم يطلقه عليه مخاطبه، وقد جمعونا يومئذ صفوفا في ساحة المدرسة، وأبلغونا خبر الإنعام على «سعادة البك» وهتفوا فهتفنا وراءهم «أفندي مزشوك يشا» وهي عبارة تركية معناها الحرفي «يعيش أفندينا كثيرا أو طويلا».

وكان الناظر جارنا فهو يعرف أبي، ولهذا كان يسميني (ابن عبد القادر) ولكنه كان أخنف فكان ينطق الباء ميما فيما يخيل إلينا، وكنت على صغري قد فطنت إلى مواطن الضعف في نفسه.

وأدركت أن «سعادة البك» مفتاح كل باب مغلق، فلا يكاد يسمعني أقول له: «يا سعادة البك» حتى يهش لي ويبز لي رأسه راضيا ويعفو عن ذنبي أو يجيبني إلى ما أطلب، وكنت دقيق الجسم صغيره جدا وما زلت كذلك إلى اليوم ولكني كنت ذا حركة دائمة فكنت لهذا لا أطيق الجلوس ساعة كاملة على تلك المقاعد الخشبية الناشفة، وكان قلقي واضطرابي يثقلان على المعلمين فيضربونني أو يشكونني إلى الناظر فتنجيني «سعادة البك» من العقاب.

وكان معلمنا في السنة الأولى شيخا قصيرًا عظيم الوجه مغضنه جاحظ العينين واسعهما وكان وجهه الضخم فيما يبدو لي في حجم صدره، وكان يعلمنا القراءة والكتابة والخط والحساب ويحفظنا القرآن، وكانت لنا ألواح من الخشب نكتب عليها الآيات الكريمة بالحبر، ثم نعود بعد حفظها فنمحوها بالأسفنجة ونكتب غيرها، وهكذا، فجمع الشيخ منا ملاليم اشترى بها (ماجورا) أخضر كما يملؤه ماء لنغمس فيه الأسفنج ونمسح الألواح، وكانت أدراجنا دكة كبيرة تسع ستة من الصبيان تتصل بها أدراج بعددهم وكانت قديمة مفككة وقوائمها متخاذلة ولم يكن من النادر أن تقع بنا فتتصايح ونضوضئ، فيخف إلينا الشيخ ويرى أن الدكة قد تفككت فيخرج ثم يعود بالمسامير يدقها فيثبت القوائم والأرجل في مكانها من مقعد الدكة أو لوحها.

وكانت حجرتنا هذه تطل على حجرة المعلمين وكان كثيرا ما يتفق أن يكون الشيخ قد خرج من بيته على ريق النفس فينادي الفراش ويناوله قرشا فيشتري فولا

مدمسا وزيتا ورغيفا ومخللا، ويضع له ذلك كله على النافذة التي بين الحجرتين ويظل الشيخ مترددًا بين طعامه ودرسه حتى يفرغ من الأكل، وكان ربما نطق وفمه محشو فنضحك. فلا يبالي، فقد كان حليما رحيما لا يقسو علينا ولا يعنف بنا، وأحيانا يلمح الناظر مقبلا من بعيد فيشير إلى أحدنا وهو يحاول أن يبلع اللقمة العظيمة ويتلكم في آن معا، ويدرك الصبي مراده فيتخطى النافذة إلى حجرة المعلمين وينقل إليها ما بقي من طعام الشيخ ثم يرتد وثبا من النافذة إلى مقعده ويمر الناظر بسلام، فيقول الشيخ لأحدنا وهو يشير إلى النافذة: «هات، هات».

وكانت ساحة المدرسة واسعة جدا، فكنا في أوقات الفراغ نتبعثر فيها ونلعب ما بدا لنا أن نلعب الكرة أو سواها وكنا نتخذ الكرة من الجوارب القديمة أو من بذور «ثمر الدوم» وهو ثمر ليفي قليل الحلاوة ولكن نواته عظيمة تصلح أن تكون كرة صغيرة نتقاذفها أو نضربها بأرجلنا.

أما فريق كرة القدم، فكان شيئا رهيبًا، ذلك أن أعضاءه جميعا رجال كبار، وكان بعضهم لا يعد تلميذًا بالمدرسة إلا على المجاز، وأذكر أن الناظر جمع من تلاميذ المدرسة نفقات التعليم لأحدهم، وكان لاعبا مشهورًا؛ وكان اسمه «سليمان» ولكنا كنا ندعوه «سللى مان» لأن وجهه كان أبيض مشربًا بالحمرة كوجوه الإنجليز، وكان يدخن «البيبة» فما كنا نراه إلا وهي بين شفتيه ولا أدري ماذا كان مبلغ علمه بالإنجليزية، فقد كنت صغيرًا، ولكني أدري أنه كان يتكلف رطانة كرطانة الإنجليز، وكان له زميل في فريق الكرة اسمه «أبو تيفه» أي توفيق وكنا نحن الصغار نسمع أنهما لا يلعبان إلا إذا شربا خمرا. فأما «سيللى مان» فلا يبعد أن يكون هذا شأنه ولكني لا أصدق أن «أبا تيفه» كان يفعل ذلك أي يسكر قبل اللعب، فقد كان وديعا كريم الشيم؛ وهادئًا رزينًا، ولا نكران أن هذا لا ينفي الولوع بالشراب، ولكني لم أر

الرجل قط فقد كان رجلا لا صبيًا مثلنا خارجا عن طوره، لا في ساحة اللعب ولا في المدرسة، وبعيد فيما أرى أن يكون مثله سكيرا.

وكانت للمدرسة عناية خاصة بطعام فريق الكرة، فكانت مائدتهم حافلة مثقلة، بل كانت المدرسة تشتري لهم المخلل في سلطانيات صغيرة لتشحذ رغبتهم في الطعام، وكان عملها هذا يستدعي منها التساهل مع بقية التلاميذ، فكان كل من معه قرش منا يقف عند حاجز البوابة قبيل وقت الطعام وفي يده القرش أو الملاليم ويصيح بعم أحمد الطرشجي هكذا «هات شوية بنكلة» أو بأكثر أو أقل، فيناوله سلطانية فيها ما طلب فيرتد بها؛ ويظل يحملها حتى يدق الجرس فيدخل بها حجرة الطعام، ولم أر مثل هذا في مدرسة أخرى من مدارس الحكومة.

٩

مرض أبي بعد شهور قليلة من دخولي مدرسة القريبة الحكومية، وصار كل من في البيت يلغط بأن زوجته التركية سمته، أو هي لم تسمه، وإنما دأبت على إطعامه لحم الأرنب بعد أن يعالجه رجل مشعوذ بما لا يعرف أحد، ليحبب أبي في هذه الزوجة، ويبغض إليه أمي، وكان أبي يعتقد أن هذه خرافات وأباطيل، وإنها مما يلفقه الخيال بتأثير الغيرة ولكن أمي كان قد أصابها سقم شديد واضطراب عصبي عنيف فعين أخي الأكبر بما أشيع من أن هذا بعض ما جره سحر المشعوذ عليها، فراقب بيت هذه الزوجة التركية فرأى يوما شيخا يدخل، فتبعه من حيث لا يشعر فصعد الشيخ إلى غرفة فوق السطح، وأوقد نارًا، وذبح أرنبا، وكتب على لحمه كلاما وعلقه في الهواء، ورمى في الموقد بخورًا فأطلقه وراح يقرأ ويعزم؛ وأخي يراقبه، ثم خطر له أن يطلع أبي على ذلك فأغلق عليه الغرفة وأوصد باب البيت أيضًا وحمل مفتاحه معه وذهب فجأة بأبي وأراه ما رأى فشق الأمر على أبي فطلق المرأة.

ولكنه مرض بعد ذلك لا أدري بماذا، ولزم البيت بضعة شهور، كان الطبيب يعوده فيها كل بضعة أيام مرة، ولكنه كان فيما يبدو لي صحيحا معافى، لا سقم به، فقد كان يشرب القهوة على عادته، ولا ينفك يدخن سجائره المألوفة ويأكل طعامه المعهود -السمك المسلوق والأرز والفاكهة- وكل ما تغير من أمره واختلف من حالها أنه كف عن النزول إلى المكتب. وأن الكاتب وأخي كانا يصعدان إليه بالأوراق فيطلع عليها ويشير بما يرى.

وعدت من المدرسة عصر يوم، فلقيني الكاتب على الباب وسألني: «أين عم محمد» فقلت: لم أره، فأخبرني أنه ذهب ليجيء بي من المدرسة لأن أبي يريد أن يراني

فيظهر أنه ذهب من طريق وعدت أنا من طريق.

ودخلت البيت فألفيت في فنائه نفرًا من أقاربنا جلوسا على الكراسي فسلمت فقال أحدهم: «اصعد، اصعد، أبوك يطلبك».

فلم أفهم، وصعدت على مهل، ودخلت على أبي، وأنا أنتظر أن أراه قاعدا على الكنبه فإذا به راقد على مرتبة مفروشة له في وسط الغرفة، وعند رأسه مصحف، فأدرت عيني في الغرفة، فألفيت النساء من أهلي قاعدات حول المرتبة، مطرقات، وفي أيديهن مناديل، يرفعنها إلى عيونهن ويكفكفن بها الدموع، فنظرت إلى أبي، فأشار إلي بعينيه فانحنيت عليه فقبلني، ونهضت وأنا غير فاهم، وهممت بأن أدور وأخلع ثيابي، وإذا بالنساء يصحن ويولولن، وإذا بأمي تتناولني وتميل على رأسي وهي تقول: «أبوك مات».

أبي مات!

لم أفهم هذا، ولم يحدث الخبر في ذهني صورة ما، فقد رأيت أبي، كما اعتدت أن أراه، لم يتغير وجهه، ولا نظرته، ولا ابتسامته، ولم يختلف شيء سوى أنه راقد على مرتبة، بدلا من السرير حتى بعد أن ولولت النساء، رددت عيني إليه، فرأيت ابتسامة مرتسمة على شفتيه وفي عينيه، فثنيت طرفي إلى الباكيات النائحات، ثم عدت أنظر إلى أبي فراعني أن الابتسامة ثابتة، كأنها متحجرة، وأن العين لا بريق فيها ولا ضوء، وأنها كالزجاجة، وأن المعنى الذي لمحته لما انحنيت عليه ليقبلني قد خبا وانطفأ فبهت ولكن منظرا جديدا شغلني وصرفني ما وقع في نفسي من هذا الموت العجيب فقد تشددت جدتي وتحاملت على نفسها، وركعت إلى جانب ابنها وأدنت أصابعها برفق من عينيه فأطبقت عليهما الجفون ولثمت جبينه ونهضت تشهق وتكاد تختنق.

ولم يبق لي مقام بين هؤلاء الباكيات، فانحدرت إلى فناء البيت حيث الرجال وكانوا يبكون ولكن في صمت، ففي الوسع احتمالهم، وضمني أخي الأكبر وأجلسني إلى جانبه ويده على كتفي والدموع تنهمر من عينيه، وأنا كالصنم وأذكر أني خجلت وحاولت أن أبكي ودعكت عيني بأصابعي ولكن العبرة لم تسعفني ولم تنجدني وكنت لا أزال غير فاهم هذا الموت الذي أثار هذه الضجة الشديدة في بيتنا فوق وتحت وترك النساء يلطمن والرجال يبكين مثل النساء.

ولا أطيل، أقيم المأتم واقتصر فيه على يوم واحد، وكان مأتما ككل المآتم فلا حاجة إلى كلام فيه ولكن أخي بعد انقضاء الأيام الثلاثة صعد إلى حيث كانت أمي جالسة، وأنبأها أن المأتم كلفنا خمسمائة جنيه فدهشت ولم تصدق وقالت: إن هذه ثروة ففي أي شيء أنفقها بل بددها في يوم واحد...

فناداني وكنت قريبا منهما أسمع وأرى ودفع إلي ورقة فيها أرقام وقال: «هذا ابنك يذهب إلى المدرسة ويعرف الحساب فليقل لك جملة الأرقام ماذا تبلغ..» فجمعت الأرقام فإذا هي كما قال خمسمائة جنيه لا تنقص مليما واحدا.

ولم يتغير شيء من حالنا في الشهرين التاليين سوى اختفاء أبي فقد كان المال الذي تركه كثيرا ولكن أخي بعد ذلك طلق زوجتيه وسرحهما وتزوج جارة لنا كانت عينه عليها ولا شك واتخذ لها بيتا مستقلا فاحتجنا أن ننتقل إلى بيت صغير بعد انتفاء الحاجة إلى البيت الكبير الذي كنا فيه فبدأت متاعبنا من ذلك اليوم فقد أهملنا أخي وبخل علينا بالمال وصار يقتر علينا ويغدق على زوجته الجديدة حتى بدد كل ما ترك أبي في نحو ثمانية شهور

وكان لجدي أرض وكانت آخر وصية علينا فزور أخي توكيلا منها له وباع

الأرض وبعثر ثمنها فيما كان يلهو به ونحن لا نعلم فلما علمت أمي لم تصنع شيئا وقالت: إنها لا تستفيد شيئا من أن تنزل به ما يستحق.

وجاء يوم خلا فيه البيت من الطعام واللبن والسكر والسمن فلو جاءنا ضيف لكانت فضيحة وكنت واقفًا على عتبة الباب أنظر إلى صبيان الحارة وهم يلعبون فرحين مسرورين لا يكربهم شيء ولا يفكرون في بن أو سكر ينقصهم، وإذا بشيخ فاضل من زملاء أبي في الأزهر مقبل علي ففزعت وهممت بأن أتوارى عنه عسى أن لا يراني فيمضي في سبيله ولكنه لمحني فناداني، وقبلني وقال: «ستك الحاجة كيف حالها؟» قلت: «بخير ولك الشكر» قال: «اصعد إليها وقبل لي يدها وقل لها: إني أريد أن أقابلها».

ولم يكن في هذا غرابة، فقد كان أيام الدراسة ملازما لجدي، وكان ربما أقام في بيتنا مع أبي الأسبوع والأسبوعين وكانت جدتي تعده كابنها، ولكني أشفقت من زيارته، فما في البيت شيء يقدم لضيف كريم مثله، فماذا نقول له، وبأي شيء نعتذر.

ولم أر لي حيلة فأنبأت أمي وجدتي، ثم انحدرت إليه وصعدت به فجلس يحدث جدتي وأنا واقف وظهري إلى الحائط، وعقلي شارد وإذا بي أسمعه يقول: إنه كان قد خطف من أبي مبلغا آخر، فثالثا فرابعًا ليشتري بذلك أرضا لنا، ولكن الأجل وافى أبي فبقي المبلغ معه، ولا علم لغير الله بذلك وقد خاف الشيخ أن ينزل به قضاء الله فيضيع مالنا، فهو يريد أن يبرئ ذمته ويردّه إلينا.

وقد كانت هذه بداية الفرج، فقد وسعنا بعد ذلك أن نعيش بهذا المبلغ وتيسر الإنفاق على تعليمنا، والفضل لله ثم لهذا الشيخ الكريم، وإنصافا له، واعترافا بفضله، أقول: إن المرحوم الشيخ إبراهيم بصيلة من كبار العلماء رحمه الله وجزاه عنا

خير الجزاء، فما وسع أحد منا في حياته أن يرد له ذرة من هذا الجميل الذي لن ننساه ولا نجحده.

obeikandl.com

١٠

انتقلنا من اليسر إلى العسر، ومن السعة إلى الضيق، واستغنينا عن «عم محمد» وامرأته «حليمة».. أو استغنيا هما عنا، سيان، فما كانا خادمين، وإنما كانا منا فيما نحس ونعلم، وأحكمنا تدبير أمورنا في حدود المورد الذي أسعفنا به حسن الحظ، وزايلنا الشعور الأول بالسخط والألم، وألفنا حياتنا الجديدة وإن كانت حافلة بضروب الحرمان مما كنا ننعم به في حياة أبي، وكل شيء في الدنيا عادة، حتى النسك والعبادة، كما يقول النواسي، من قصيدة في ابن الربيع:

أنت يا بن الربيع علمتني النسك وعودتنيه والخير عادة

ومضت الأيام، وانتظمت الأمور واستقرت الأحوال بعد القلق والاضطراب، وكانت نفقات التعليم -على ضآلتها- فقد كانت ستة جنيهات في العام أثقل ما نضطر إلى الاحتياط له وتدبيره وفي وسع القارئ أن يتصور حياة من تثقل عليه ستة جنيهات في العام، فجاءنا يوما قريب لنا، واقترح علينا أن نطلب من الوزارة أن تعفيني من نفقات التعليم، فاستحسنا ذلك وقلنا عسى ولعل، وشرعنا نعين الوجوه التي ينبغي أن نحول إليها ما كان يأخذه التعليم، وكتب قريبي الطلب وأرانيه فقرأته على أمي فسرتها عبارته وما فيها من القصد والترفع عن الاستجداء والضراعة، وقالت: حسبنا التعليم بالمجان مذلة.

وغاب قريبنا أيامًا ثم جاءنا بنبأ قال: «يا ستي»

قالت أمي: «نعم. خير إن شاء الله»

قال: «الغاية تبرر الوسيلة»

قالت: «يعني».

قال: «إن هذا الطلب لا يرجى أن يجاب إلا إذا عززناه بقرشين»

فصاحت: «إيه.. هل تريد أن تقول: إن فلانًا -تعني ناظر المدرسة- يطلب رشوة..»

فقالت أمي معترضة: «إذا كنا سنرشو الناس ونحن فقراء فأولى أن نؤدي نفقات المدرسة ونستريح ونعفي ضمائرنا من هذه الإثم»

قال: «ولكن الإعفاء سيظل طول مدة التعليم»

قالت: «ولو»

وأصرت ألا تفعل هذه الفعلة.

فانصرف قريبنا ساخطًا على هذا العناد متعجبًا لهذا التحرج الذي لا موجب له في رأيه، ولكنه لم يقنط، فأعاد الكرة مرة أخرى، حتى كرهت إلحاحه وآثرت أن تريح نفسها من لجاجته، فأنقدته أربعة جنيهات زعم أنه سيفرقها على رجلين.

ومر شهر، ودنا موعد افتتاح المدارس ونحن كل بضعة أيام نسأل قريبنا عن الطلب ماذا صنع الله به، وهو يقول: إنه يتعقبه في كل مرحلة من مراحله، ثم فاجأنا يوما بالبشرى، ففرحت جدتي واغتمت أمي، واضطربت أنا فلم أعد أدري أينبغي لي أن أفرح كجدتي أم أحزن كأمي.

وفتحت المدارس فأهملنا أن نعد مقدار القسط الأول، وهو جنيهان وجاءنا قريبنا يقول: إنه أخطأ وإن الوزارة إنما قبلت أن أتعلم بنصف مصروفات فقالت أمي

بعد انصرافه: ضيعنا أربعة جنيهات وارتكبنا إثمنا لنقتصد ثلاثة جنيهات، وناولتني جنيها قيمة نصف القسط الأول وقالت: «اذهب به إلى المدرسة والأمر لله».

فذهبت إلى المدرسة وفي جيبي الجنيه ولكن الله ألهمني ألا أذهب إلى كاتب المدرسة فاستأذنت على الناظر وقدمت له الجنيه فسألني وهو ينظر إليه وإلي: «ما هذا يا بني؟»

قلت: «جنيه»

قال: (ظاهر، ولكن لماذا تعطينيه).

قلت: (إن فلانا قريبنا أخبرنا أن الوزارة قبلت أن أتعلم بنصف المصروفات فهذا هو القسط الأول).

وكان الرجل رقيق القلب عظيم الحنان، وكانت بينه وبين أبي صداقة فرأيت الدمع يترقرق في عينيه وهو يقول:

(أنا آسف يا بني، لقد رفضت الوزارة الطلب، ووالله ما قصرت في السعي لك ولكن هذا ما كان).

فشكرته وأعدت الجنيه إلى جيبي، ورجعت به وبالخبر، آخر النهار إلى أمي.

ودفعنا القسط كاملا.

وسألت أمي قريبنا عن الحقيقة فاعترف لها بأنه كذب عليها وأنه أخذ الجنيهات الأربعة لنفسه، ووعد أن يردها عند الميسرة، وقد مات وهي في ذمته.

وقالت لي أمي يوما: (لست آسفة إلا على خديعتنا، وما أثمرته من زيادة الضيق الذي كنا فيه، أما التعليم فإني أحمد الله الذي مكنني من أداء نفقاته في مراحله كلها، فما كان يسرني أن تشعر أنك دون أندادك، وأنك رقيق الحال، وهم في سعة، وكنت أخشى أثر هذا في نفسك فالحمد لله الذي حماك هذا الشعور).

وأخذت الشهادة الابتدائية فقالت أمي: (تذهب إلى المدرسة الخديوية وتقدم إليها طلب الالتحاق بها) ولكن أخي وقريبي الذي أسلفت ذكره جاء ليقنعا أمي بأن تقبل توظيفي فاستغربت وقالت: (ولكنه طفل)

قال قريبي: (إن نفقات التعليم الثانوي كبيرة فمن أين تجيئين بها؟).

وعزز أخي رأيه وألح الاثنان عليها إلحاحا شديدا وهي تأبى وتقول: إنها لا ترضى بذلك، وإن ابنها يجب أن يتعلم، وإن أوان التوظيف وكسب الرزق لا يزال بعيدا فأغلظ أخي لها في الكلام وعنف معها قريبي فطردتهما وأمضت مشيئتها وأدخلتني المدرسة، وقد بقيا زمنا غير قصير لا يجترئان على دخول بيتنا، ولكنها كانت تبعث بي إليهما لأزورهما، وتوصيني ألا أقطعهما، وتقول: إنه خلاف أدى إلى جفوة بينها وبينهما، وقد فعلت ما تريد وقواها الله عليه فلا مسوغ لبقاء النبوة ولا موجب لها على كل حال فيما بيني أنا وبينهما، وهي لا تضمر لهما بغضا، ولكنها تخاف لعبهما ودخولهما مرة أخرى فيما لا يعنيهما، فخير لي أن يبقيا بعيدين حتى أفرغ من التعليم.

واعترضت الحمى طريقي في السنة الأخيرة من التعليم الثانوي، وكادت تضيعني بل تقتلني، وكان قريب لنا من الأطباء يتولى علاجي، ولكن العلاج لم يكن يبدو له أثر فقضيت الصيف كله أو جله راقدًا لا أكاد أعي شيئًا، من شدة الحمى.

وفي إحدى الليالي ثقلت علي وطأة المرض جدا، حتى جزعت أمي على ما أخبرتني بعد ذلك، وكادت توقن أني هامة اليوم أو الغد، لولا أن الأم لا تفقد أملها، وكنا في بيت كل غرفة فيه تصلح أن تكون ساحة أو ملعبا، وكانت نوافذ الحجرة التي أرقد فيها تطل على فناء البيت وفيه شجرة جميز عظيمة، تصل أغصانها الذاهبة في الهواء إلى النوافذ، وكنا نضع قلل الماء على أحد هذه الشبابيك لتبرد، فحدث أن مدت أمي يدها إلى قلة تريد أن تشرب، ففلتت القلة من بين أصابعها وهوت إلى أرض الفناء ففزعت أمي واضطربت جدا، وكبر ظنها أن هذا نذير بموتي، وخطر لها أن تنحدر إلى الفناء في فحمة الليل لترى أسلمت القلة أم تحطمت.

وكانت لا تشك في أنها تكسرت فما يعقل أن تقع من أعلى طبقة في البيت وأن تنجو من التهشم، ولكنها نزلت مع ذلك، لأن القلة لم تكن عندها في تلك اللحظة إلا رمزًا، وكانت سلامة القلة معناها البشرى بنجاتي.

ومن العجائب أن القلة لم يصبها سوء ولعل ذلك لأنها وقعت على أرض رخوة طرية كثيرة البلل تحت ظل الشجرة أو لا أدري كيف أعلل هذه النجاة من العطب الذي كان ينبغي أن يكون محققا.

وقد حدثتني أمي بعد ذلك بزمان طويل وهي تروي لي هذه القصة، أنها بكت، وأنها عجزت عن القيام، فظلت قاعدة على الأرض غير عابئة بالبلل والرطوبة والوحل، وفي يدها القلة، والدموع تنهمر من عينيها دموع الأمل والاستبشار.

وقضت ساعة فيما تحس، ثم نهضت فصعدت، ودنت مني وأنا نائم، ولمست وجهي بكفها، مترفقة محاذرة، مخافة أن توقظني، فإذا أنا أتصبب عرقًا، وإذ بثيابي كلها كما قالت عصرة.

وأصبحت وقد ذهبت عني وقدة الحمى وأخذت أتماثل...

obeikandl.com